الطريق إلى دهوك

سميرة المانع

الطريق، خصوصا عدم وجود خط طيران مباشر للعراق عام ٢٠٠٥، هل سيجلب الأخ زوجته العروس؟ أمر غير متأكدتين منه.

في صالة الانتظار بالمطار مخازن منوعة تحيط بهما، بضائعها المعروضة مثيرة ملونة للاغراء، لا يهم أصحابها التجار، لكثرة طمعهم، أن يدفع الزبون آخر ما في جعبته للشراء. إلا أن المتفرجين ظلوا عصاة. بعضهم أبدى اهتماما قصير الأجل سرعان ما فقده، ناكصا، لغلاء الاسعار. طال الانتظار وهما تنتظران نداء الطائرة. ما معنى الصمت؟! انتبهتا إلى أجهزة تلفزيونات منتشرة في المكان، على شاشاتها جداول مواعيد الطائرات الهابطة / المغادرة للمطار. اسرعتا إليها مثلما يسرع المسافرون المشتاقون المحتارون. فتشتا عن طائرتهما فوجداها مع جميع تفاصيلها، ببالغ الحبور، إلا أن الخيبة سرعان ما ظهرت على وجهيهما. أخبار الطائرة ليست على ما يرام، على ما يبدو، لقد ذكر نبأ تأخر إقلاعها في الموعد المحدد. ماذا أربع ساعات!! أربع ساعات ستتأخر؟! يا للخيبة. دمدمتا متأففتين، متذكرتين أنهما قد حجزتا أيضا، على طائرة أخرى في مطار اسطنبول لتقلهما عند وصولهما اليه إلى منطقة ديار بكر القريبة من الحدود العراقية التركية، ومنها ستأخذان سيارة اجرة توصلهما إلى مدخل " ابراهيم الخليل " الواقع والفاصل بين حدود العراق وتركيا، بعد ذلك تأملان أن تأخذا سيارة أجرة ثانية لتوصلهما إلى مدينة (دهوك) التي أصبحت، مؤخرا، لدى بعض العراقيين المسافرين، لا تقل أهمية عن لندن وباريس.

بعد نبأ تأخر طائرتهما المربك، وجدتا أن لا حول لهما الآن سوى الانتظار. انتحيتا مقعدا فارغا. تنظران للركاب الآخرين المسرعين للوصول إلى زيارة أوطانهم وأحبائهم بسهولة واطمئنان يفتقدانهما. كم سنة حرمتا من رؤية العراق؟ عشرون، ثلاثون سنة وأكثر. لم تتحدثا بالموضوع الآن. كانتا صامتتين. ما بين حين وآخر يكرر المذيع بالميكرفون اسفه لتأخر طائرتهما الموعودة. ما الفائدة من الاعتذار؟ هيا نشتري شيئا من الساندويج والعصير من ذلك المخزن المقابل، أظنه رخيصا. أقترضت و اقترحت إحداهن على الأخرى، قبل أن يبدأ الميكرفون، بعد هنيهة، بنداء مشجع لركاب طائرتهما المتأخرة، يدعوهم إلى تناول وجبة غداء، إذا رغبوا، في أي مطعم من المطاعم المنتشرة في انحاء المطار على حساب شركة الطيران، تعويضا لهم عن التأخير. لا بأس بالاقتراح. انفرجت اسارير في قاعة المطار وكأن الجميع كان مفلسا جائعا. توجهت مجموعة من الناس إلى أرقى مطعم بالبناية، وكلها هيت لك، دخلوه بأمان وسلام. ماذا بقي من الاحباط والحسرة؟ نطلب ما نشاء الآن، كلها تحت تصرفنا: الاسماك، اللحوم، المشروبات، الحلويات، الفواكه، كلها تحت أمرنا. اختار كل راكب صِنفه مسرورا وبمزيد من المتعة والانس. مَن قال أن " المعدة بيت الداء" محق إلى حد كبير. انشغلت الاختان، بدورهما، بالتفتيش في قائمة الطعام المعروضة للاختيار. ماذا تفضلين؟ وكيف تختارين؟ الواحدة تقول للاخرى أثناء انهماكهما بالبحث عن غداء مناسب. وقف قبالتهما الرجل نفسه الذي لاحظت لمياء تلفته عليهما أمام موظفة المطار وكأنه راع في قطيع. سلم عليهما باللغة العربية الفصحى مضحيا بلهجته العامية. ابتسمتا مرحبتين به، مأخوذتين بمنظره المفاجئ على طريقة رؤية ضيوف هبطوا فجأة على أهل الدار. أفردتا له فسحة كي يأخذ كرسيه حقه في المكان. المطعم الخالي سابقا مكتظ بالزبائن واللغط الآن، شراشفه المنشاة البيض اتسخت هنا وهناك. شعرتا بضرورة مساعدة الأخ عند الضيق.

جلس معهما شاكرا وسرعان ما اشبع فضوله باكتشافه أنهما عراقيتان تسكنان لندن، فتهيأ للحديث معهما بما يليق:

- العراق دولة دمرتها الحروب. هو أغنى كل الدول العربية. فيه ماء ونفط. ثم أردف: " ولقد خلقنا من الماء كل شئ حي".

نظرتا إلى سيمائه يحزران من أي بلد عربي يكون، لكن لمياء فضلت أن تسأله شيئا آخر:

- هل زرت العراق؟

- نعم سنة ,١٩٧٩ كنا مدعوين من قبل الحكومة العراقية. ما يقرب من ٥٠٠٠ شاب من كافة أنحاء العالم. أخذونا للاطلاع على معالمه. أذكر ذهبنا إلى ناحية التأميم.

قاطعته نهى:

- تقصد مدينة كركوك.

- نعم، وجدنا النفط ينبثق من الآبار هناك كالحنفية، لكن للاسف لم تنفعه ثروته الطبيعية، هناك دول ضد مصالحه بالاضافة إلى بعض حكامه.

كان يضع قبعة معمولة بالحياكة اليدوية على شكل قفة للرأس. رفعها أثناء حديثه معهما، مستمرا في إكمال قصة العراق، الخبير بها وباسرارها، كما يظن، بعد أن عرف أنهما تسكنان لندن ومنذ سنين:

- آه من لندن، إنها سبب المشاكل في المنطقة، وتريد اليوم تقسيم العراق. ما معنى شيعة، سنة، أكراد؟ هذه كلها تحضيرات للتقسيم.

- بالمناسبة، لا توجد بالعراق طوائف بالمعنى الذي نسمعه في وسائل الاعلام. مايجري، حاليا، حالة مختلفة، أصفها بـ: التخلف والتقدم أو الجهل والمعرفة.

قالت لمياء ليرد عليها:

- سيخلق الغرب هذه الحالة من أجل النزاع والخصام. لقد حصل هذا بالجزائر ولبنان مؤخرا.

ملت لمياء من وضع اللوم على الآخرين. أرادت أن تفصح عن رأيها للجالس أمامها المجهول الاسم. جمعت أفكارها لدحض الفكرة:

- لماذا دائما نضع اللوم على الآخرين. ما هو دورنا ولماذا لا نلام على الاهمال والتقصير؟ لديّ صديقة قديمة تسكن لندن أحبها لولا ميلها دائما في وضع اللوم على غيرها في حالة فشلها الشخصي أو في الحالة العراقية المنكوبة. مؤخرا، مثلا، وجدت في موضوع تفجيرات قطارات مدريد قبل فترة ونفذها الاسلاميون المتطرفون، وجدتها سببا وجيها كي تكرر عادتها: " يا أختي لمَ الاكثار من المساجد باوربا؟ يقال يوجد خمسمائة مسجد بلندن بمعونات من الحكومة البريطانية " وعندما أخبرتها برأيي كون الحكومة البريطانية تتصور أنهم سيحافظون على مدنها ما داموا ممتنين ومرتاحين ببريطانيا. هزت رأسها رافضة الفكرة، وقد وجدت تعليلا آخر قائلة: " لا والله، تريد الحكومات الغربية أبعادهم عن الواقع لكي يعيشوا قي الغيب " فهم الشخص المقابل بعد هذا القول كيف يتعامل بذكاء وبسرعة مع الجالستين معه كي يقبل:

- لو بنت الحكومة البريطانية لهم قاعة للموسيقى الشرقية أو حضانة للاطفال كي يتعلموا لغتهم لانتقدوها. هم يريدون التأخر بل مغرمون به.

جاء النادل باطباق الأكل. وزعت عليهم. طبق الطعام النباتي وضعه أمام نهى لتشرح أختها عنها أسباب امتناعها عن أكل اللحوم:

- توقفت أختي عن أكل اللحم منذ سنة، تعترض معدتها على إدخال أي دم فيها في هذه الايام، احتجاجا على السيارات المفخخة والقنابل الموقوتة المرمية في الطرقات لتقتل السابلة الابرياء بالاضافة إلى الانتحاريين بالعراق الذين لا أعرف بأية صفة أصفهم.

- حتى صفة الحيوانات المفترسة لا تنطبق عليهم، لأنها لا تفتك بجنسها. الحالة لا تطاق، مخجلة أمام أنظارالعالم كله، فيها تشويه لصورة الدين الاسلامي. لم يتعلموا كيف أنّ اليابان بعد فشلها الذريع في الحرب العالمية الثانية وحرمانها من جيش نظامي إلى الآن تقريبا، استطاعت بعبقرية ابنائها الحكماء من النهوض تحديا. هل سمعتم يابانيا دمّر صناعة بلده أو قتل أبناء شعبه بحجة وجود أميركان محتلين فيها.

- بالضبط. نحن مسؤولون عن تردّي أوضاعنا. ليتنا نكفّ عن لوم الآخرين ونلتفت إلى عيوبنا. الفساد على رأس القائمة، الإهمال، ردود الافعال الانفعالية الهوجاء من دون تخطيط أو تفكير عقلاني.

أختها نهى تأكل وتسمعهما. كانت جائعة وحوارهما يعجبها. تترك المتحدثين يؤديان الدور بالكامل، يتلكآن في الأكل لإكمال التعبير عما يخالجهما من هموم بأخذ ورد كلاعبي كرة سلة:-

- العقل مهمل. أتذكرين كيف ضجوا على اقتراح بورقيبة عندما ذكر وجوب السلام وتقاسم الارض مع اسرائيل قبل عشرات السنين. لقد وصفوه بابشع ما عندهم، بينما هذا ما يفعلونه اليوم. إنهم يريدون السلام بل يتوسلون كي تعطيهم اسرائيل بقعة من أرضهم ليفتخروا أنهم حرروا شيئا.

- آوه، اذاعات وصحف العرب، كالعادة، تهافتت في شتم بورقيبة نكاية باقتراحه. وصفته بالخائن بادئ ذي بدء.

تبين لهما أن الأخ تونسي، وجد فرصة للثناء على زعيم وطنه يوما، موجها حديثه للجالستين مستأنسا أن يستمر به:

- ثلاثة اشياء حرص بو رقيبة على إنجازها بعد العودة إلى وطنه من منفاه بباريس. أولاً: الاهتمام بالتعليم والثقافة. ثانيا: اصدار قوانين منصفة تخص حقوق المرأة سنة ١٩٥٧، وأخيرا فتح باب السياحة في تونس على مصراعيه. أصبحت طبيعة تونس ثروة وطنية للبناء الاقتصادي. الرزق والوظائف جاءا من السياحة دون شك.

نهى تصغي بعد أن أنهت طعامها. تمنت لو تدلو بدلوها أيضا بموضوع انشغلت به وسائل الاعلام، مؤخرا، ودت لو تعرف رأي التونسي فيه:

- أين نذهب اليوم من استعمالهم الدين للتضييق والتجهيل. إحدى الفتاويتحرم استعمال إهداء الزهور للمرضى في المستشفيات، على اعتبار أنه بدعة غربية. الفتوى الاخرى تحرم على المرأة أن تكشف عن جسدها حتى مع زوجها في الفراش.

- ترهات، ترهات، وأباطيل. لقد مرت أوربا بها يوما لكنهم نفضوها عنهم بالعلم الحديث، مبتعدين عنها كجراثيم. في رأيي، الدول الايديولوجية من دينية أو قومية ستزول مستقبلا لكن بعد أكثر من خمسين سنة. أنظرا للصين، مثلا، كيف كانت قبل سبعين سنة وما يجري فيها في الوقت الحاضر. أصبحت الصين براغماتية تتعامل مع جميع الدول تبعا لمصلحتها ومن دون حروب، ولا ننسَ دول الاتحاد الاوربي اليوم وتعاونهم مع بعضهم، ناسين حروبهم الرهيبة الكارثية بسبب الدين والقومية في الماضي. سيصبح الاقتصاد والرخاء وحقوق الانسان للشعب هو المقياس للدولة الحديثة مستقبلا.

آوان وينتبه الجالسون الثلاثة في المطعم أن النقاش حول بلدانهم أخذ منهم وطرا. لاحظوا أن معظم الزبائن الذين دخلوا المطعم خرجوا منه وبقي نفر قليل يأكلون على المناضد البوظة أو ينتظرون طبق الحلويات الأخير. رأوا رجلا أسمر من بعيد، أنيقا في مظهره، ينظرنحوهم وكأنه يعرفهم. عندما قاموا من أماكنهم أبدى إهتماما ملحوظا بترك منضدته أيضا. عند الباب توقفوا ليسلم عليهم بالعربية وبمودة. من نطق عبارة السلام عليكم عرفت العراقيتان أنه من أبناء الخليج، وبمجرد أن تلاها بعبارة اخرى أشار إلى أنه من الكويت ذاهب إلى اسطنبول أيضا، على نفس طائرتهم في رحلة تجارية. سار معهم عائدين إلى قاعة الانتظار. الرجلان يتحادثان فيما بينهما لتجد الاختان الفرصة سانحة للاعتذار من أجل الذهاب إلى غرفة توالت المطار. في الطريق إليه أعربت نهى عن توقعها قائلة باختصار: " ليس مرة أخرى". فهمت لمياء بسرعة ما تعني فهي تقصد احتمال إعادة فتح النقاش السابق حول بلدانهم. قالت تؤيدها: " فعلا، صرنا مثل الفضائيات العربية كلام في كلام، لا نحتاج إلا إلى عنوان برامج (شارك في الحوار)".❖

❖ الفصل الخامس عشر من رواية: (مَنْ لا يعرف ماذا يريد) المعدّة للطبع.

قيم السرد بين كالفينو وإيكو

سعد محمد رحيم

وهو يلج بيت السرد باحثاً عن تعريف جامع لعمله يحتفي إيتالو كالفينو بستة عناصر يراها قيماً تطبع جوهر السرد الروائي هي (الخفة والسرعة والدقة والوضوح والتعددية والاتساق). وقد أعد خمس محاضرات عن القيم الخمس الأولى لإلقائها في جامعة هارفارد الأميركية في إطار برنامج (قراءات نورتون الست) في العام١٩٨٥ فعاجله الموت، في السنة ذاتها، قبل إكمال المحاضرة السادسة وقبل سفره إلى أميركا. وقد نشرت المخطوطة الناقصة التي أعدها بعد وفاته في كتاب كان قد اقترح له عنواناً، يبدو للوهلة الأولى، غريباً: (ست وصايا للألفية الثالثة)❖.

ولكن لماذا ارتأى أن تغدو هذه القيم السردية وصايا لألفية قادمة حال بينه وبينها الموت؟. أتراه آمن بأن ما هو صالح للسرد هو، بالضرورة، صالح للحياة، ولمستقبل البشر؟.

يكرس كالفينو محاضرته الأولى للتعارض بين الخفة والثقل. وإذ لا ينكر فضائل الثقل يعترف أنه حاول "إزاحة الثقل عن الناس أحياناً، وأحياناً عن الكائنات السماوية، وأحياناً عن المدن، وفوق كل شيء.. عن بنية القصص واللغة".. كان العالم من حوله هائجاً ودامياً. وكان يرغب بإيجاد انسجام بين إيقاع عالمه الداخلي وما يجري في الخارج. واعياً للفجوة بين ثقل العالم الخارجي الذي كان يشعر به وكأنه يتحول إلى حجر، وبين اللمسة الخفيفة والسريعة التي أرادها لكتابته. وما كان يهمه ليس السرعة المادية بل العلاقة بين السرعة المادية وسرعة الفكر. وماذا تعني سرعة الفكر غير "الرشاقة والحركية والسهولة، وكلها خصائص تسير مع الكتابة، حيث يكون من الطبيعي أن نستطرد، أن نقفز من موضوع إلى آخر، أن نفقد الخيط مئات المرات، ونجده ثانية بعد أكثر من مائة انعطاف واستدارة". وحين يعرج على القيمة الثالثة (الدقة) يخبرنا أنها تعني ثلاثة أشياء "خطة محددة ومحسوبة جيداً للعمل المعني.. استحضار صور بصرية واضحة وحادة لا تنسى.. ولغة محددة قدر الإمكان في كل من جانبي اختيار الكلمات والتعبير عن حدة الفكر والمخيلة..".

وكالفينو يفهم سلطة المخيلة.. المخيلة التي لولاها لن يكون ثمة فن، أو أدب، أو علم. والغاية هي الوصول إلى (الجدة والأصالة والابتكار) حيث المخيلة البصرية تسبق التعبير اللفظي.. يقول: "أول شيء يرد إلى ذهني عن الاستعداد لكتابة قصة، صورة تقتحمني لسبب ما بوصفها صورة مشحونة بالمعنى، حتى وإن لم أتمكن من صياغة هذا المعنى بتعابير منطقية أو مفاهيمية".

نتذكر أن رواية (الصخب والعنف) بدأت بصورة متخيلة في رأس مؤلفها وليم فوكنر، كما ينوه في مقابلة صحافية، عن فتاة صغيرة سروالها ملوث بالطين تحكي لأطفال على الأرض، وهي فوق شجرة، ما تراه عبر نافذة غرفة في منزل أهلها إذ تجري الاستعدادات لتهيئة جنازة الجدة المتوفاة تواً.

إن المخيلة التي تبغي الوضوح تواجه عالماً معقداً، متشابكاً، متعدداً. فكيف يمكن أن نستعير شكلاً فنياً لفوضى العالم عبر موشور المخيلة ومنظور الذات (المبدعة). ولاسيما إذا كان القصد اختزال هذا المعقّد، المتعدد، المتشابك في عمل ذي قوام رشيق، مختزل، ومتسق؟.

هذا ما يشغل بال كل من تستهويه الكتابة السردية. وهذا ما سعى كالفينو الإجابة عليه في ضوء تجربته في الحياة، وفي دنيا الكتابة.

بعد ثمان سنوات (١٩٩٣) يستحضر أمبرتو إيكو في إطار المحاضرات ذاتها (نورتون) ذكرى إيتالو كالفينو. ويتخذ من بعض القيم التي تطرق إليها كالفينو نقاط ارتكاز أو إلهام. غير أنه وهو (الناقد والروائي) كان يبغي في جزء كبير من محاضراته الست تناول وضعية القارئ في النصوص السردية. معترفاً أن كتابه (القارئ في الحكاية) ليس سوى تعليق نظري على كتاب كالفينو (لو أن مسافراً ذات ليلة من ليالي الشتاء).

يعنون إيكو محاضراته بـ (٦ نزهات في غابة السرد)❖❖. والغابة هنا استعارة ذكية تحيلنا إلى تعقيد وتعددية وتشابك عالم السرد، إذ يتجسد كون من الاحتمالات، من أشكال الولوج (عنوان محاضرته الأولى: ولوج الغابة). حيث تتهيأ أمام الوالج/ القارئ شبكة من فرص الاختيارات، حيث وبتعبير إيكو "على القارئ أن يقوم باختيارات معقولة داخل الغابة السردية". وكلمة (معقولة) في هذا السياق، بحسب إيكو، لا تتعلق ببساطة بالحس السليم، بل تفصح عن شيء أبعد. وهنا يفرّق بين نوعين من القراء (القارئ النموذجي والقارئ الفعلي) يقول: "القارئ الفعلي هو أي كان، نحن جميعاً. أنت وأنا ونحن نقرأ النص. فهذا القارئ قد يقرأ بطرق مختلفة، فلا وجود لقانون يفرض عليه طريقة معينة في القراءة. وعادة ما يتخذ النص وعاءً لأهوائه الخاصة. وهي أهواء مصدرها عالم آخر غير عالم النص، ولا يقوم النص سوى بإثارتها بشكل عرضي".

تغدو عملية ولوج الغابة أشبه باللعبة. وعلى القارئ احترام قواعد هذه اللعبة، والانتباه إلى إشارات المؤلف التي هي في الغالب ملتبسة. والقارئ يعتمد على حدسه وخبرته وثقافته في اختياراته، وأكاد أقول في تأويلاته. لكنه أبداً لن يستطيع إهمال إشارات الصانع/ المؤلف أو إشارات السارد داخل غابة النص.

وفي مقابل القارئ النموذجي ثمة المؤلف النموذجي الذي يعلنه إيكو بعده أسلوباً، واضحاً وبديهياً ومميزاً. وهو يتجلى كما لو أنه إستراتيجية سردية، أو حزمة من التعليمات علينا الخضوع لها إذا ما تقمصنا دور القارئ النموذجي. والقارئ النموذجي "يتصرف بطريقة تجعل النص يكشف عن روابطه المتعددة الممكنة.. وهذه العلاقة ينتجها الذهن الذي يقوم ببلورة المادة الأولية للنص.." وهو أيضاً، وما زلنا ماضين مع تخريجات إمبرتو إيكو، "مجموعة من التعليمات النصية التي تبدو على سطح النص إثباتات أو إشارات أخرى..".

يخبرنا إيكو إذن عن قارئه التخييلي الماكث في النص الذي يولد من النص مشكلاً العصب الإستراتيجي التأويلي. وعن مؤلفه النموذجي الذي لا يخلو منه أي نص روائي، حتى الرديء منه، والذي يحفز تخيلنا وردود أفعالنا الجسدية، كاشفاً عن نفسه من غير مراوغة القارئ "منذ الصفحات الأولى محدداً له الانفعالات التي يجب أن يحس بها في الحالة التي قد يفشل فيها الكتاب في إثارتها". وهذا القارئ التخييلي يتجسد من طريق التأويل، على الرغم من أن وجوده وجود شبحي. وكل نص يتوقع مثل هذا القارئ العنيد والخاضع والصبور والمصاب بأرق مثالي.

تتجلى العلاقة بين القارئ النموذجي والمؤلف النموذجي في أثناء القراءة، أو في نهايتها. وقد لا نتعرف على المؤلف النموذجي إلاّ بعد قراءة النص مرات عديدة، وربما إلى ما لا نهاية.

حين يلتفت إمبرتو إيكو إلى قيم السرعة والتهدئة في النص السردي يلجأ إلى اصطلاحات نقدية ثلاثة هي مظاهر للزمن: زمن الحكاية.. زمن الخطاب.. زمن القراءة.. تتطابق الأزمنة الثلاثة في الموسيقى إلاّ أنه من الصعوبة التمييز في السردية بين زمن الخطاب وزمن القراءة، حيث أن زمن الخطاب "هو نتيجة لاستراتيجية نصية تتفاعل مع استجابة القارئ وتفرض عليه زمناً للقراءة". ويمكن جعل زمن خطابي قصير زمناً طويلاً للحكاية، أو بالعكس.. إنها لعبة المؤلف النموذجي في علاقته بالقارئ النموذجي. ويعود إيكو إلى كالفينو الذي يحتفي بالسرعة من غير أن ينكر المتعة الناتجة عن التهدئة.

متى يسرع المؤلف النموذجي أو يهدئ من زمن الخطاب ليتحكم بزمن الحكاية، (وأيضاً باهتمام القارئ) وكيف، أي على وفق أية إستراتيجيات؟.

أحسب أن لا أجوبة نهائية على هذا السؤال، طالما أننا معنيون بأجناس السرد الأدبي، ولاسيما الرواية التي هي جنس مفتوح وواسع الممكنات.. فكالفينو يقر بمزايا السرعة والمتعة الناجمة عنها، لكنه لا يلغي مزايا التباطؤ، يقول؛ "إن قطعة تعقل خاطفة ليست أفضل بالضرورة من قطعة تأمل طويلة. إنها تختلف عنها، إلاّ أنها توصل شيئاً خاصاً ينبع بكل بساطة من مجرد انخطافها ذاته". ويروي كالفينو حكاية صينية ذات مغزى نتلمس عبر قراءتها خريطة العلاقة المتداخلة بين المبدع وعمله، وبين المتلقي وذلك العمل، من زاوية السرعة والتهدئة.

"كان من بين مهارات تشيانغ تزو المتعددة مهارته في الرسم، وطلب منه الإمبراطور رسم سرطان بحري، فقال تشيانغ تزو إنه بحاجة إلى خمس سنوات وبيت ريفي واثني عشر خادماً لإنجاز الرسم. وبعد خمس سنوات لم يكن قد بدأ الرسم. وقال تشيانغ تزو؛ أنا بحاجة إلى خمس سنوات أخرى واستجاب الإمبراطور. وعند نهاية هذه السنوات العشر تناول تشيانغ تزو ريشته، وفي لحظة، وبضربة فرشاة واحدة، رسم سرطاناً بحرياً. السرطان الذي لم يسبق لأحد أن شاهد ما هو أكثر كمالاً منه على الإطلاق".

ايكو

المصادر:
❖ (ست وصايا للألفية القادمة/ محاضرات في الإبداع) إيتالو كالفينو.. ترجمة وتقديم؛ محمد الأسعد.. إبداعات عالمية، العدد: ٣٢١ . ديسمبر ١٩٩٩ . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . دولة الكويت.
❖❖ (٦ نزهات في غابة السرد) أمبرتو إيكو.. ترجمة؛ سعيد بنكراد.. المركز الثقافي العربي.. الدار البيضاء، بيروت.. ط١/ ,٢٠٠٥

سركون بولص عابرا نهر الحياة

هاتف جنابي

دراسة بعنوان" الانسلاخ والبحث عن الذات في شعر سركون بولص" وقدمتها في مؤتمر عقد بجامعة آدم ميتسكيفيتش في مدينة بوزنان– غرب بولندا. وذكرت فيها أنك اللاسياسي، اللامنتمي، البعيد عن إفك السياسة، أخذت في العقدين الأخيرين بالذات، تبحث عن ذاتك حائرا مسافرا ببطاقة شعرية مفتوحة إلى الأبد. وقلت إنك أخذت تعود أكثر من ذي قبل لأكد وآشور ونبوخذ نصر وجلجامش وسومر، وكأنك تستنطق رموز وحجارة وأهل أرض الرافدين التي عصفت بها السنون ودكتها سنابك الغزاة. لقد بدأت من أرض آشور ومنها انطلقت وإليها اشتريت بطاقتك المفتوحة، لكنك لم تصلها أبدا، لقد وصلت إلى عمق شعر العرب، واخترقت روح بلاد الرافدين روحا ولم تصل جسدا. ألم تفتتح ديوانك "الأول والتالي" بالعبارة التالية "أهلي في أرض الرافدين.. إلى أحيائي وأمواتي"؟ ثم ألم تستلف من جلجامش عبارته الموحية"إلى أرض الأحياء، تاقَ السيدُ للسفر"؟ ثم ألم تبوب ديوانك بمسامير(أرقام) أرض الرافدين؟ وقلت فيك أيضا: إنك برحيلك في العام ١٩٦٧ صوب بيروت ومن ثم كاليفورنيا، كنت تبحث عن ذاتك عبر الشعر والتجربة، عبر الحياة والفكر. لكنك بخداعك نفسك قد صنعت الشعر.

لقد كتبت، بعد أن قرفت من الحياد وأنت البعيد عن السياسة:

"أيها الجلاد

عد إلى قريتك الصغيرة

لقد طردناك اليوم، وألغينا هذه الوظيفة"(١٩٨٤).

أنت اخترت الشعر الحر وقصيدة النثر شكلين –شراعين لسفينتك الشعرية، في وقت كان فيه ممثلو قصيدة"التفعيلة" في مواقع الدفاع لا الهجوم. مضيت في مجاهيل الشعر مريدا مخلصا يقظا ورائيا.

كنت متأكدا من أن رحيلك كان في الغرب شرقا وعراقا على وجه التحديد.

نعم هناك سفر وسفر، عودات وعودات، رحلات كثيرة وثمة رحلة واحدة باتجاه وحيد وهي الأكثر تعبيرا وصمتا.

قرأت لك أيضا:

" أصلُ إلى وطني بعد أن عبرتُ

نهرا يهبط فيه المنجمون بآلات فلكية صدئة

مفتشين عن النجوم

أو لا أصل إلى وطني

بعد أن عبرت نهرا لا يهبط فيه أحد"(من قصيدة: هناك رحلات).

وداعا أيها الشاعر المبحر صوب العدم..

"نهرٌ تعبره صبحا ومساء
تبدأ في المنبع لكنك تنسى
أين تصب حياتُك أحيانا"(شتاء في أثينا)

سيشرع الجميعُ بتأبينك، عدا الكلمات التي أحطتَ بها، لملمتها فنثرتها في عمق الحياة. كلماتك ليست كأدغال الآخرين، وموتك لم يتمّ قبل إشراقة الشعر. لقد عبرت نهر الحياة يا هذا الصامت الأبدي الآن في تابوت الصقيع. هل اخترت برلين ميناء موتك، بعد أن عذبتك الوحشةُ المعززة بمغامرات آلهة الحروب، والعزلة والغربةَ المستشريتَين؟ افترضتَ ترحالك بين المدن ولم تستمع لخطاب طبيبك، ولا لنداءات صديقك البرليني الذي احتضنك ودافع عنك برقة حتى رمقك الأخير. ألم تكن بانتظار سفرتك الشعرية الليتوانية؟ ألم تتراجع مرارا في قرار عودتك من برلين إلى كاليفورنيا، رغم المواعيد التي قطعتها على نفسك وصديقك البرليني العتيد؟ سوفت واحتلت على الجسد الهزيل الذي لم ترد بسببه أن يراك أحد، حتى تلك الفتاة المتبرعة بفك طوق وحشتك. كنت تدرك احتضارك واختيارك وتداعي جسدك، لكنك راهنت على روحك وذلك الكلام- الأفق الذي رهنت نفسك من أجله؛ أعني حصان الشعر.

ألم تقل في ١٩٦٤ وأنت داخل بلادك: "أصدق دائما بأن شعرا أكتبه هو وجود أعيشه..أشمه، أتذوقه، أقتله ويقتلني والوجود هذا ذو صعوبة بالغة، وله ألف صوت يخترقني... وألف رأس يرتفع في أفقي، يخنقني، يوقفني، يربط قدمي وأحيانا يريحني بأشياء ميؤوس منها. كل هذا هو شعري، وحين أنظر إليه، وجودا كثيفا لعينا، مباركا، أكتب شعرا كثيفا، لعينا، مباركا، أكتب تناقضات وجودي". لم تراجع ما قلته بعد ذلك مطلقا، لأنك قد وعيت مبكرا، منذ ذلك الحين، أن الإبحار وراء الشعر لا نهاية له، وأن من أبحر مثلك في الشعر لن يعود. لقد كتبت عنك (أنا الذي أبحث عن قارب النجاة)، قبل سنتين ونصف